

دراسة

شخصية الانسان الشعبي في روايات عبد الرحمن منيف

بقلم الدكتور: نبيه القاسم



العمر، نساعد آباءنا في غرس الاشجار، ويأتي الناس بعد ذلك ليقتطعوا، ومتى يقطعونها؟ بعد أن تكبر مع ايام الجوع والركض وراء الرغيف، فإذا جاءت النهاية نموت، وقلوبنا مثقلة مثل اشجار الصبار بالهموم والتعاسة". (الاشجار واغتيال مرزوق ص ١٠٧)

ويظل ما يميز الياس نخلة انه لم يفقد الامل يوماً من الايام، قد تهاجمه لحظات اليأس والحزن وكراهية الحياة والرغبة بقتل النفس. لكن المهم انه يتميز بصفة التفاؤل والتشبث بالحياة والاصرار على المقاومة والنضال وخوض غمار الحياة، فهو يتحدى الحياة بإصراره على عدم التسليم واعلان الاستسلام. "لم اتعب، ماذا تنظن؟ انا لا أزال قوياً، وحتى لو قبضوا علي الآن، وصادروا كل شيء فسوف ابدأ منذ الغد بالبحث عن عمل، نعم، ان اهم شيء في هذه الحياة ان يبقى الانسان قوياً، نعم ان يرفض التسليم، قد يكون الآخرون أقوى منه ولكنهم لن يستطيعوا الرغامه على التسليم". (الاشجار واغتيال مرزوق ص ١٦٨)

هذا ما قاله الياس وهو يُهزَّب الملابس ويواجه رجال الجمر في صبر وثبات، والياس مجرد رجل من عامة الناس واجهته الخيبات الكثيرة، لكنه حمى نفسه من السقوط بثباته وجلده وقوة تحمله وإيمانه بأن على الإنسان ان يواجه ويقاوم ويتابع الطريق بثقة وإيمان.

وكان عساف نموذجاً آخر للإنسان الشعبي العادي الذي عاش الطفولة القاسية، فقد أحب الصيد كأهل بلده، ورافق والده في رحلات الصيد ولكنه فقد والده وهو صغير مما وضعه في حالة صعبة تفرض عليه مواجهة قسوة الحياة، ولم يستسلم عساف الصغير وداوم على رحلات الصيد وحذق المهنة، وابتكر الطرق المختلفة المتميزة في الصيد مما جعله مشهوراً له بين كل أهل بلده الطيبة، لكن عساف لم يستغل مهارته لنفسه بل كان يصطاد ويوزع صيده على فقراء البلدة، وحتى بعد إجماع القرية على اعتبار عساف مجنوناً وجعله يشعر بالغرابة، الا انه ظل يحب اهل بلده ويدعوهم الى التريث والحذر في صيدهم حتى لا يجدوا أنفسهم في سنة القحط والمحل بدون طيور تضمن لهم استمرارية الحياة.

كان عساف يملك سر التميز عن باقي اهل بلده بحبه الكبير لهم، وعطفه عليهم وخوفه على مستقبلهم وتحذيره لهم: "الأيام الصعبة لم تأت بعد، وعلينا ان نستعد لتلك الأيام"، (النهايات ص ٤٠) وهو ينبههم الى ما يمكن ان يحدث: "اسمعوا، إذا انتهت هذه الطيور، وجاءت سنة من سنوات المحل، وإذا ظلت الحكومة تكذب سنة بعد سنة، ولا تبني السد، فتأكدوا ان اهل الطيبة سيموتون عن بكرة ابيهم" (النهايات ص ٣٧).

لكن موت عساف في رحلة الصيد الأخيرة، والطريقة التي مات عليها جعل أهل الطيبة يقفون على حقيقة الواقع الذي يعيشه الناس، وعظم الفجيعة التي حلت بهم نتيجة لموت عساف، والخسارة التي خسروها بموته، حتى ان البعض لم يُصدق بموت عساف واعتبره حياً باقياً بينهم. عساف الذي بُد من اهل بلده خلال فترة حياته، ووصف بالجنون، مما دفعه للشعور بالغرابة وسط اهل بلده رغم تمسكه بحبهم، كان دائماً مستعداً لتقديم كل مساعدة تطلب منه، حتى انه ضحى بحياته في سبيل اهل بلده، وهذا ما أدى بأهل بلده ان يغمروه بالحب بعد موته، حتى ان البعض رفعه الى مصاف الشهيد "عساف لم يموت موتاً طبيعياً، مات من اجل الطيبة، مات شهيداً" (النهايات، ص ١٥٨) وحتى ذهب البعض الى حد الرمز والاسطورة بتأكيده على أن النعش المحمول على الأكتاف قد ارتفع عنها وطار الى الاعلى: ان ما كادت الايدي الجديدة تتلقى عساف، ودون تقدير سابق او اعتبار للوزن وطريقة الحمل، بدأ النعش يموج في حركة نصف دائرة سريعة، ولقد قال الكثيرون انهم شاهدوا النعش يطير". (النهايات، ص ١٦١)

وكما نجح الياس نخلة في "الاشجار واغتيال مرزوق" ان يُثير احساسيس ورغبات ونوازع منصور عبد السلام، فقد نجح عساف بموته ان يفجر عواطف أهل بلده وحبهم المخفي له ومشاعرهم الصادقة نحوه". وبدا ان اهل الطيبة، رجالاً ونساءً، تبكي نفسها بشكل لم تفعله من قبل، لكن الى جانب البكاء، كان الغضب". (النهايات، ص ١٦٢) وقد وصل تأثير موت عساف على أهل بلده الى حد إعلانهم على لسان المختار، رفض الصمت والسكوت بعد اليوم، والاستعداد للثورة وتحصيل ما يستحقون بالقوة". لن أعود الى الطيبة مرة اخرى الا لأحمل بندقيته، وأبقى في الجبل، ومن هناك، ومع الآخرين، سوف نعمل كثيراً غير الصيد. اما اذا وافقوا على بناء السد، فسوف أعود على ظهر بلدوزر لكي يبدأ العمل، ولكي تبدأ الطيبة تعرف معنى الحياة بدل هذا الموت الذي تعيشه كل يوم". (النهايات، ص ١٦٤).

(كاتب المقال الدكتور نبيه القاسم حصل على دكتوراه اولى من جامعة بطرسبرج "روسيا" وحصل مؤخراً على دكتوراه ثانية في بحث عن عبد الرحمن منيف، من جامعة تل ابيب).

ضعيفاً، ناتئ عظام الوجه، تبرز رقبتة داخل القميص الواسع وكأنها رقبة طائر، عيناه بين الرمادي والأزرق، ضاحكتان بسخرية، وملابسه فضفاضة متناقضة الألوان، يضع غصناً اخضر في عروة سترته الزرقاء ذات الازرار الذهبية اللامعة، وعلى كتفه يُعلق مطرة عسكرية لونها أصفر كامد. " (الاشجار واغتيال مرزوق ص ٢١) وهو أنسان مكافح يعتمد على نفسه في تأمين حياته، "انا أحب يا أستاذ أن أكل لقمتي بعرق جبيني، أريد أن اعمل، ولا أطيق أن أظل بدون عمل. اما اذا فشلت في عمل. فأني لا أتردد ابداً في التفتيش عن عمل آخر، مهما كان هذا العمل" (الاشجار واغتيال مرزوق ص ٥٠).

ولهذا لم يستقر الياس في مكان واحد، كان دائم التنقل بحثاً عن العمل، ولا يتردد عن القيام بأي عمل يضمن له استمرارية الحياة. والياس يعيش بلده "الطيبة" ولكنه لا يتردد عن هجرها اذا فقد ما يربطه بها، ولا تمنعه عن الهجرة حتى توسلات أمه، "بكت، توسلت، قلت لها: لم أعد أطيق يا أمي، إن بلدة لا تنبت فيها الاشجار لا يُمكن ان يعيش فيها الانسان،



عبد الرحمن منيف

والطيبة التي كانت يوماً خضراء مثل عروق النعناع تحولت اليوم الى مقبرة، الى ارض غبراء، ولا اطيق أن اعيش فيها يوماً واحداً". (الاشجار واغتيال مرزوق ص ٦٣) وكما أخلص في حبه لبلده "الطيبة" التي مهما بعد عنها يعود اليها، وكما احب الاشجار وجن جنونه بعد خسارته لها، هكذا كان الياس في حبه لحنه، المرأة التي لم يحب مثلها امرأة اخرى، والتي بسبب حبه لها كان، مهما بعد عن الطيبة ورغب في هجرها، يعود صاعراً لأن قبر حنة محبوبته هناك. "أترك الطيبة وأعود اليها، أتركها يوماً، أسبوعاً، شهراً، ولكنني أعود في النهاية، دائماً أعود، لأن في الطيبة رغم سنين الألم، أو دعت حياتي، أودعت الاشجار وحنة والأولاد، وفي الطيبة أتمنى ان اموت". (الاشجار واغتيال مرزوق ص ١٧١)

والياس نخلة لم يفقد الثقة بنفسه ابداً ولم يضعف امام اية مشكلة، وكان يقول بكل الثقة: "لأن لكل انسان حياته، ولا يُمكن ان تتشابه حياتان أبداً، يُمكن أن نُقلد حياتي، ولكن من الخارج، أما هنا، ودق على صدره فهذا لا يمكن ان يُقلده احد". (الاشجار واغتيال مرزوق ص ١٣٠)

ورغم الوضوح الذي يُميز شخصية الياس نخلة، إلا أن الياس نخلة نفسه يصير على أنه انسان غامض، فيه شيء مجهول وسر صعب الاكتشاف. "لا أحد في هذه الدنيا يعرف الياس، وحتى الياس لا يعرف نفسه، إن فيه شيئاً غامضاً يستعصي على الفهم" (الاشجار واغتيال مرزوق ص ١٦١) وكانت تنتابه احيانا نزعات قتل النفس، "نسيت كل شيء الطيبة، وحنة، وسلطان، ولم تكن تملؤني سوى رغبة واحدة، رغبة لذيدة تلح علي، ان اقتل نفسي". (الاشجار واغتيال مرزوق ص ٩٤)

وهذه النزعات كانت تدفع به الى كره الحياة والتساؤل: "ما هي الحياة، فعلا ما هي هذه الزانية، لو فكرنا بهذا الامر طويلاً لأصابنا الجنون، نولد، نشقى بطولتنا، ونحن نتلقى الضربات على مؤخرتنا، ثم لم يتقدم بنا

الانسان الشعبي كما ظهر في روايات منيف هو الذي تُشغله هموم الحياة وما تفرضه عليه مشاغله اليومية من توفير الرزق وسُبل ضمان العيش، والذي يُواجه الحياة يوماً فيختبر كل ما يُصادفه ويتعرف عليه ويعاني معاناة فعلية، هو الانسان الأمي الذي قد يُتقن القراءة والكتابة ولكن الحياة التي يواجهها والتجارب التي يخوضها تجعل منه انساناً واعياً يعرف كيف يتصرف وكيف يتشبث بالحياة ويعمل على تغييرها نحو الافضل. وهنا ما جعل منيف يقول: "إن الانسان العادي اكثر غنى وأكثر صدقاً من الكثير من المثقفين".

الانسان الشعبي قَدّمه لنا عبد الرحمن منيف في شخصيات عديدة، ولكن أهمها شخصيتي الياس نخلة في رواية "الاشجار واغتيال مرزوق" وعساف في رواية "النهايات". وتكاد الشخصيتان تتماثلان من حيث اندفاع كل منهما نحو الحياة والتمسك بها ودفع الناس للإيمان بها والعمل من أجل ضمانها على أفضل صورة، فالياس نخلة يرى في بقاء الاشجار والعناية بها أمل "الطيبة" في البقاء والازدهار والتقدم، وعساف يرى في الحفاظ على الطيور وعدم قتلها الضمان الوحيد للتغلب على سنوات القحط والجوع. لم يُفكر أي منهما بنفسه وحسب، بل إن همّة الشاغل كان الجميع ومستقبل الجميع. "إن الانسان بدون الآخرين يُساوي ذبابة ويتحول الى مجنون" (الاشجار واغتيال مرزوق) ومثله يرى عساف الذي يخاف على أهل الطيبة ويقول لهم: "قلت لكم ألف مرة، لم يبق بيننا وبين الموت إلا ذراع، وهذه الذراع هي الصيد الذي نستطيع ان نوفره حين تأتي الامطار مرة اخرى. قلت لكم مئات المرات وأنتم لا تسمعون هذا الكلام، وبدل ذلك تزدادون حماقة يوماً بعد يوم". (النهايات ص ٥١).

صحيح ان الياس نخلة فشل في الحفاظ على أشجاره، ومثله فشل عساف في منع صيد الطيور. بل الصحيح ان كلا منهما كان مسؤولاً عما حدث، فالياس نخلة قبل المقامرة على أشجاره فخرها، وعساف قبل مُرافقة الضيوف القادمين من أجل الصيد وحتى انه رضي بمتابعتهم للصيد رغم انهم اصطادوا ما فيه الكفاية. لكن رد فعل كل منهما على الفشل لم يكن بالتسليم وإنما بإعلان موقف الرفض. فالياس نخلة قام بالهجوم على بيت الرجل الذي أخذ منه اشجاره فقتل العشرات من أغنامه وهدده بالموت، ثم ترك البلدة وراح يبحث عن حياة جديدة في المدينة. تنقل من مكان الى مكان ومن عمل الى عمل وجرب الكثير في حياته ولكنه ظل مُتشبهاً بالحياة، واثقاً بالمستقبل وان اليوم الافضل سيأتي

ومثله كان كلام عساف واضحاً: "لم يُخلق الصيد للأغنياء او للذين يقتلهم الزهق والشعب، لقد خُلق للقراء وللذين لا يملكون خبز يومهم". عساف قضى حياته كلها في البرية لا يصيد في مواسم الخير الا ما يملأ معدته، اما في مواسم الجفاف، ولكي لا يموت الناس في الشوارع فقد رأى أن الصيد يُمكن ان يكون حلاً. (النهايات ص ٥٣) لكن عساف الذي كان يصيد ويأتي بصيده ليوزعه على الفقراء التمساع ليتابعوا الحياة، ويرفض ان يكون الصيد متعةً ورفاهية لمجرد الصيد، كان عاجزاً عن مقاومة طلب المختار والضيوف بالموافقة على أن يكون دليلهم في رحلة صيدهم التي كانت بالنسبة له الرحلة الأخيرة.

وكما كان تحدي الياس نخلة للحياة القاسية وظلم الناس نموذجاً لقدرة الانسان الشعبي على التأقلم ومُتابعة الحياة والتأثير فيها، فإن موت عساف في النهايات كان انطلاقة التفجير للأحاسيس والمواقف ودفعها نحو العمل لمواجهة الواقع الظالم وفرض تغييره نحو الأفضل حيث يقول المختار وهو ينظر الى جسد عساف المسجى امامه: "هذا عساف، إنه أمامكم، أنظروا إليه، عساف الحصان، عساف الغيمة، ابو الفقراء، الذي لا ينام ساعة في الليل من أجل ان تعيش الطيبة وتبقى. عساف الذي يُحب الجميع، ويقتل نفسه حتى يستمر الناس. عساف زينة الرجال، ترككم الآن، ترككم وحيدين تُحاربون الحكومة والعسكر والجراد، ولا احد يعرف اية قوى اخرى، وماذا سيحصل!" (النهايات ص ٨١-٨٢).

ويقول: "الكبر ظلم لعساف اننا تركناه يحارب وحده، حتى الكلب كان احسن منّا، لقد حاول إنقاذه، ونحن لم نفعل".

ويكون تأثير عساف كبيراً وفعالاً في قرار المختار بأن لا يعود الى القرية بعد دفن عساف وإنما سيتوجه الى المدينة ليتحدى السلطة ويُطالبها بتحقيق الوعد ببناء السد الذي يضمن لأهل الطيبة الحياة. ويُهدد بأنه اذا عاد للطيبة فاشلا فسيعود ليحمل البندقية ويحارب السلطة. (النهايات ص ٦٤).

وكما أهتم الكاتب ان يعرفنا على تميز وتفرد وملح شخصيات منصور عبد السلام ورجب وزكي نداوي، هكذا يُقدم لنا شخصية الياس نخلة ومن ثم شخصية عساف بكل ما تمتاز به من الملامح الجسمانية والنفسية والفكرية.

فالياس نخلة بطل رواية "الاشجار واغتيال مرزوق" يبدو في الخمسين،